ملاحظات عامة حول المقياس ومضمونه، وأهدافه ومقاربته الأساسية:

- نحاول من خلال هذه المحاضرات تتبع مسارات وتعرّجات، وقفات وعثرات، نجاحات واخفاقات سيرورة التربية والتكوين بالجزائر، ولن يتأتى ذلك في اعتقادنا إلاّ بالعودة لأصولها، خلال الفترة الاستعمارية، حيث القاعدة الصّلبة والجذور العميقة لمدرسة اليوم بتعدد مراحلها وتسمياتها.
- نجتهد في تقديمها وفق مقاربة سوسيوتاريخية، تتلمس تاريخ ووظائف "جهاز" التربية والتكوين في الجزائر، ليس من خلال القرارات والبرامج المعلَنة فقط، وإنّما بقراءة نقدية بكشف الغايات والمرامي غير المعلَنة والمضمرَة منها، ووظائفها الأيديولوجية منذ الحِقبَة الاستعمارية.
- سيلاحظ القارئ تنوّع وتعدّد الصّياغة اللّغوية الأجنبيّة -غير العربية- لعديد المفاهيم والمصطلحات والعبارات المفتاحية في المقياس كما نتصوّره، وذلك بغية تقديم سجل مفاهيمي متعدّد لغويا (خاصة الإنجليزية والفرنسية)، لخلق ما يمكن تسميته ب"تآلف/أُلفَة مفاهيمية" مع مصطلحات الشّبكة المفاهيمية لثيمة التّربية والتكوين، واكتساب سجل مفاهيمي يُيسِّر للقارئ إمكانية التّوسع فيه عبر لغات أخرى في البحث.
- مقاربة ثيمة التربية والتكوين بالجزائر، يصطدم بمشكلة نقص المراجع المتخصّصة، سواء في الفترة الاستعمارية أو بعد الاستقلال. وحتى المتوفرة مازالت

غذراء لم نتمكن كدولة مستقلة من تحقيقها، مصيرها مصير الأرشيف الجزائري بفرنسا منذ ستة عقود.

- الإشكال الآخر في التفكير حول تاريخ الجزائر عامة والتربية والتعليم خاصة يحيلنا بالضّرورة للتّفكير فيه من خلال "عقل أوروبي" إن لم نقل فرنسي خاص-بعواقب الذّاتية-، إذ أغلب الدراسات القليلة المتاحة من إنجاز دارسين فرنسيين وأوروبين (خاصة المستشرقين منهم)، باستثناء بعضها. لأن أغلب المؤلفات من انتاج مفكرين أوروبين، بل عسكرين فرنسيين.
- سيلاحظ القارئ كثافة التّعليقات والتّهميشات والإحالات بالسّند، وذلك لأنّنا نعتقد أنّ الإحاطة بموضوع التّربية والتّكوين بالجزائر عملية عسيرة لارتباط وتعالق الأخيرة بفاعلين مؤثّرين تركوا بساماتهم/وصماتهم في تاريخ المجتمع، وثِقل مجالات متعدّدة، تاريخيّة، سياسيّة، دينيّة، اقتصادية وثقافيّة، خاصّة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ما زالت غائبة أو مُغيَّبة عن حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث آثارها -وسُمومها- ما زالت قائمة الى يومنا، تفعل فعلتها في عديد شؤوننا، سواء بقصد أو عن غير قصد. ولأنّ الأثر غير المرغوب فيه L'effet pervers للتّعليم الانتقائي الفرنسي تجلّى في تبلور "وعي مناهض" له، ومقاوم له بأساليب متباينة، تدلت ذروته في إندلاع ثورة 54، حيث ظهرت نخبة أتقنَت تلابيب الثّقافة الفرنسية الاستعمارية، لكنّها لم تفقد هويتها الجزائرية، بل استثمرتها لتوعية وتنوير أبناء الشّعب المغلوب على أمره. نُخبةٌ لم تكن منسجمة أيديولوجياً،

لكنّها واعية برهانها الحقيقي، رغم العثرات والاستثناءات والأزمات الّتي ظهرت هنا وهناك، ورغم انسلاخ بعضهم عن أصولهم الحزائرية، حتّى أنّ بعضهم وقف ضدّ إرادة الشّعب.

- تكمن أهمية التاريخ الإنساني الفردي والمجتمعي في تفاصيل الحياة اليومية له، وليس في العموميات، لذا سنحاول التّركيز على ذلك، خاصة ضمن الحقل التنشئوي والتّعليمي العام والخاص، قدر الإمكان لارتباطه بالحقول الأخرى، في مقدمتها أحداث التّاريخ، ذلك لأنّ "الماضي القريب مفتاح الحاضر " حسب "Lord Acton".
- سنجتهد في ترجمة ببعض التّصريحات الأجنبية للغة العربيّة لتسيير الفهم أكثر على الطّالب، لذا نعتذر إن وردت ناقصة.

المحاضرة: لمحة وجيزة حول

السوسيولوجيا ومهامها الأساسية في

الحقل التربوي

الأهداف المنشودة من المحاضرة:

- التّذكير بمهمة الباحث في السوسيولوجيا
- التعرف على عينة من أقوال رواد السوسيولوجيا في قضية مهمة الباحث السوسيولوجي

استهلال:

كفاتحة لسلسلة هذه المحاضرات سنضطر للتوقف ولو بعجالة عند مفهوم السوسيولوجيا، باعتبارها قمّة وذِروَة سنام العلوم حسب "أكوست كونت"، نظرا لتعقد موضوعه، وتشابك تعالقه بين متغيراته الداخلية، الذاتية، والخارجية، الموضوعية.

إدراكنا للواقع الاجتماعي... تدرج بين الظل والنور:

هل الواقع الاجتماعي أبيض أم أسود؟ هل هو ثنائي أم متعدد الألوان؟

لتقريب الفكرة:

- في عام 1667 قام (نيوتن) بتحليل الضوء الأبيض بمنشور زجاجي فوجد أن الضوء ينكسر من خلال المنشور إلى أشعة طيفية مُلونة، وهي المُكونة لألوان قوس قزح (الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنِيلي والبنفسجي). فخلص الى أنّ الأسطح تمتص الأشعة الضَّوئية وتعكس منها جزءًا آخر، ينعكس على شبكية العين في صورة طول مَوجِي معيّن، ذو شِدّة تردّد محدّد، حيث يتم ترجمته في لون واحد في عقلنا.
- وعكس ذلك هناك تجربة مشهورة بين تلاميذ عديد المدارس، تتلخص فكرتها في أنّك إذا أخذت مروحة هوائية كهربائية ذات ثلاثة أذرع، ولَوَّنت كل ذراع، باللون الأصفر والأحمر والأزرق، فستلاحظ مع الدوران السريع يجعل هذه الألوان تتمازج وتداخل معًا لتعطيك اللون الأبيض[1].

[1] عُمر عون، " ما بين الأبيض والأسود.. لنا في الألوان حياة"، أبريل 4, 2017. https://www.egyres.com/

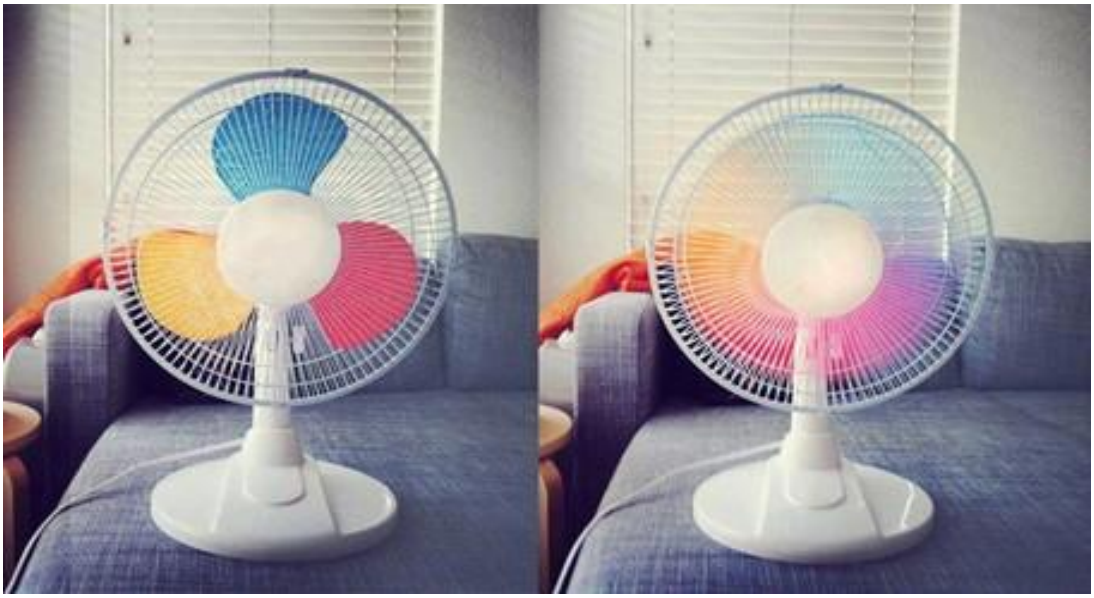

إدراكنا للواقع الاجتماعي... تدرج بين الظِّل والنّور والعَتَمَة:

قانون/بديهية ما عدا الله كلّ شيئ متعدّد ومختلف:

لعل من نواميس الكون الوجودية خضوعها لمبدأ أحادية الله وتعدد مخلوقاته (الكونية)، حيث تعدد السماوات والأراضين والمشارق والمغارب والنجوم والمجرات،...، والمخلوقات والملل والنِّحل،...القبائل والشّعوب والمجتمعات،... ومنه تعدد وتنوع الثقافات والفهومات التي يصنعها تفاعلات الواقع المعيش (بالجمع).

وعليه، أيّ انحياز فلسفي وفكري/فهمي /تفسيري قصدي أو غير قصدي لا يأخذ بعين الاعتبار هذا المبدأ فهو انحياز عن الفهم الصّحيح والموضوعي العلمي للمشاهد الوجودية، والإنسانية، خاصّة المجتمعية منها.

مَثَلُ الواقع الاجتماعي كمثل قوس قزح:

معروف أنّ قوس فزح(قوس المطر) ظاهرة طبيعية مثيرة، ذات خصائص فيزيائية وبصرية متغيرة، متعدّدة ومتنوعة، كثيرا ما ارتبطت بأساطير وخرافات القبائل والمجتمعات. يتألف من طيف ألوان قوس قزح، الأحمر، البرتقالي، الأصفر،

الأخضر،الأزرق النيلي والبنفسجي. يتحول اللون الأحمر في الطيف تدريجيا إلى اللون البرتقالي، ثم الأصفر، ثم الأخضر، ...ألخ، مع العلم أن لكل لون طوله الضّوئي. تبرز ظاهرة قوس قزح عندما يسقط المطر، أو يتكثف الضّباب، حيث يخترق ضوء الشّمس وينكسر عبر قطرات الماء، ويتفكّك لعدة ألوان متداخلة ومتدرجة مشكلة ما يُعرف بالنِّطاق. تسمى طريقة تحلل ضوء الشمس الأبيض في طيف ألوان بظاهرة التَّشَتُّتLa dispersion . لكن، علميا لا يتشكل طيف ألوان قوس قزح من سبعة ألوان فقط، بل من عديد الألوان الأخرى، تعرف بالألوان الوسيطة. من المثير أن عدد الألوان يتباين من 3 إلى 9 حسب الثقافة، حيث ميز أرسطو ثلاثة ألوان فقط، بينما ذكر بلوتارخ أربعة. في حين ما هو منتشر اليوم من تمثلات للألوان تبايم من خمسة إلى سبعة ألوان، السّبعة التي أعلنها نيوتن، حيث ما زالت ذات تأثير ثقافي معين[2].

- من مقولات "ابن خلدون" ضمن السياق المرام توضيحه أن «الإنسان جاهلٌ بالذّاتِ، عالمٌ بالكَسبِ».. عَقلَهُ صفحةً بيضاء، ليس فيها معرفةً قَبْليَّة! ثم تبدأ التّجارب بالانتقاش عليها. لتُلونها.. هذا فِعلٌ أبيض، وهذا جُرمٌ أسود، وما بين حدّة تناقض الأبعَدَين نَهرُب لعالمٍ من الألوان، عسى أن تَنبُتَ زهرة بريَّة بنفسٍ جرداء، أو حتى يواسينا بصبره -على العطَشِ- خَضار لون الصبّار.. في سطورنا الآتية محاولة

[2] Arc-en-ciel. https://fr.wikipedia.org/wiki/Arc-en-ciel#cite_note-10

متواضعة منّا لوقف الأسود عند حدِه، ومنح الأبيض بعض حَظِّه، فلا يطغى ولا يُطغى عليه، ويكون لنا في الألوان حياة!.

- **لكن ما علاقة قوس قزح بالو اقع الاجتماعي؟**

المتبصر والمتأمل للواقع الاجتماعي يدرك بعد تدقيق أنه متداخل ومتعالق الظواهر ومتغيرات ومؤشراتها. فلو أخذنا أية ظاهرة اجتماعية للمقاربة والتقصي رغم أن البداية تظهر مرتبطة بسيطة الكشف والتفسير لأسباب التشكل والانتشار، إلاّ نكتشف بعد ذلك عسر العملية، لكن، بالتأمل بالادوات المفاهيمية والمنهجية المناسبة والمتعددة، يضعنا أمام شبكة مسببات ومتغيرات متداخلة ومتباينة التأثير في الظاهرة. حيث التعدد والتباين والتنوع في الحجم والحدّة وقوة تأثير المتغيرات من مجتمع للآخر، بل من وسط اجتماعي للآخر، داخل ذات المجتمع. فما اعتقدنا أنه متغير فاعل في الظاهرة بتدحرج طفيف مكاني أو زماني، أو كلاهما معا، يتضح لنا بروز متغير (لون) أخر، أكثر وضوحا واشعاعا، وذات اللون متشابك مع ألوان(متغيرات) مجاورة، كلها تتفاعل في صناعة الظاهرة المرام فهمها وتفسيرها. وهكذا نبقى نعيش ظاهرة قوس قزح بطابعها الاجتماعي، متعددة ومتنوعة ومتداخلة المتغيرات و المسببات في الحقل الاجتماعي.

أن تتماهى كباحث في علم الاجتماع...يعني؟

- أن تضع كل ماهو بديهي مألوف، وطبيعي اجتماعيا موضع تساؤل واستشكال حاد، ومُزمِن، بغية الوصول للفهم -ولو النّسبي المؤقت- لنواميس "المناورات السّياسية

Les jeux politiques" على المسرح المجتمعي، بإدراك خلفيات ومبررات "أفعال/أدوار" (من شطحات ورقصات وأغاني اجتماعية) التي يصنعها فاعليه Les acteurs، ويتبناها منفعليه Les sujets.

- أن تملك الجرأة -وليس التّهوُر والارتجال- في استثارة أسئلة غير معهودة وغير معتادة.
- أن تبتعد عن حالة البطالة والعطالة السوسيولوجية المقصودة وغير المقصودة، بمعنى أن تمارس السوسيلوجيا عمل بل مهمة "ضنكى" على مستوى ما هو مطلوب من بذل وعطاء فكري، ونظرة "موصومة" من لدن الآخرين، خاصّة من أهل الحل والرّبط بتعدّد دوائرهم، ذلك لأنّ من مهام السوسويلوجيا في جوهرها " مُصارعة un sport de combat" المجتمع كما يقول " Bourdieu".
- أن تكون منهجساً ومسكوناً وحسّاساً لما يحدث من تفاعلات اجتماعية بين ظواهر وممارسات معقّدة ومتداخلة، ولن يتأتى ذلك إلا بامتلاكك لأدوات مفاهيمية ومنهجيّة خاصّة، عُدّة مخصّصة للغوص في مناطق الظِّل والعَتَمَة المجتمعية.
- أن تقدر على كشف وفضح ما هو خفي ومضمر في الساحة الاجتماعية وعبر مختلف تضاريس المجتمع.
- أن تُدمِن تَتَبُّع وتَحسُّس حيثيات وأواليّات إشتغال الواقع الاجتماعي كما هو قائم، لا كما يجب أن يكون في "أحلامنا"، تلمس تلابيب الواقع بمنطلقاته المتشعبة وتناقضاته الممكنة، بعيدا عن التّعامل السَّطحي مع تجلياته من خلال ظواهر

متشابكة. ولا التّرويج المجاني لدوغمائية تبسيطية ما، ما قد يضفي لفهم ساذج للواقع المعقد.

- أن تتمكن من الإمساك بالخيوط الرفيعة للحياة العنكبوتية الاجتماعية وتناقضات ومناورات العالم الاجتماعي المعيش. ونَنأى عن تغليب "موضة" التّفسير التِّقنوي التّبسيطي "المتسرّع" للقضايا الاجتماعية والثّقافية والتربوية، واختزالها قهرا في جوانب محددة، لأنّ العالم الاجتماعي المتعدد والمتحول أعقد مما نتصور، عالم لم تتمكن العلوم الاجتماعية من صبر أغواره منذ مأسستها، إلاّ القليل، الآفِل مع الوقت القريب، إذ ما أن تمرّ فترة حتّى تمسي نتائجها في خبر كان، تفرض على أهل الاختصاص الإعادة من جديد، لأنّ طبيعة موضوعها متحوّل على الدّوام ومعقّد حتّى النّخاع، سواء فردا أو جماعة أو مجتمعا.
- أن تتجاوز وتتخلّص وتحذَر عادة التّفكير الأرثوذوكسي في الحياة الاجتماعية. خاصة وأنّ مفردة "أُرْثُوذُكْسOrthodoxe " كلمة إغريقية، تتركب من جزئها الأوّل "أرثوذ Ortho " وتعني "الصّواب" أو "الصّحيح" أو "القَويم"، "المستقيم"، والثّاني "دوكسا (doxa)" يعني "الرّأي" أو "الاعتقاد". على نطاق أوسع تعني "ما يتوافق مع"، "احترام التقاليد"، "من يفكِّر بطريقة صحيحة". كما تُستخدم بصفة عامة للدلالة على الالتزام بالأعراف المُتّفق عليها. من مرادفاتها في اللّغة الإنجليزية اعتيادي، مِعياري رُوتيني Standard and routine [3]. حيث تأخذ تأويلات تنزاح لمعاني التَّزَمُت والتَّعَصُب

[3] **Cambridge Dictionary** .https://dictionary.cambridge.org/fr/dictionnaire/anglais/orthodox

للرَّأي، للفكرة وللفعل. كما تعبر عن المعتقدات أو الأفكار أو الممارسات التّقليدية والطّبيعية والمقبولة من معظم النّاس.

- أن تتمكن من دحض وتجاوز سلطة وقهر مفاهيم وأنماط وكليشيهات الحسّ المشترك، بمساءلة كل ما هو .
- أن تغامر في كشف وإضاءة ما يحدث في مناطق الظل والعتمة المجتمعية (الهامش الاجتماعي وليس المركز المسلّطة عليه الأضواء).
- أن تتمكن من فضح "Paul Pascon" (1932-1985) فعالم الاجتماع هو ذاك الذي تأتي الفَضِيحَة عن طريقه. بل وإزعاج (Alain Touraine) "إنّ علماء الاجتماع يُزعِجُون فِعلا". ومقارعة ومشاغبة خطط وأدوار وإطمئنان الفاعلين في الحياة الاجتماعية. فقد كتب"P. Bourdieu" "إنّ علماء الاجتماع أشبه ما يكونون بمشاغبين يفسدون على النّاس حفلاتهم التّنكُرية" (العطري، 2009).